ختم العمل الصالح بالاستغفار والشكر

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:
فإنه يُشرع للمسلم في ختم العمل الصالح بالاستغفار، والشكر.

أما الاستغفار: فإن الموفق عند ختام عمل صالح -مهما اجتهد فيه- فإنه يشهد تقصيره عما يليق بالرب سبحانه، وتعالى، ولذا نلاحظ هذا المعنى في الصلاة التي يشرع فيها الاستغفار عقبها، وفي صلاة الليل أخبر سبحانه أن المتقين يختمونها بالاستغفار سحراً، قال سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]، وهكذا في الحج يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)﴾ [البقرة: ١٩٩]، ولما أمر الله سبحانه بجملة من الأعمال الصلاة من قيام الليل والصدقة قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾ [المزمل: ٢٠] قال السعدي في تفسير الآية: "وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بتزقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آتاء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك" [تفسير السعدي (ص ٨٩٥)].

بل إن حياة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي كلها دعوة وعبادة، أمر بختمها بالاستغفار قال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر: ١-٣]، في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي. يتأول القرآن).

ولذا "كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار والصدقة؛ صدقة الفطر؛ فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرفع ما تحرق من الصيام باللغو والرفث".

وعليه: فإن الموفق مهما اجتهد في طاعته إلا أنه يشهد تقصره فيها فيمتلئ قلبه بالإخبات لله سبحانه، ويلهج لسانه بالاستغفار، ويدفع ذلك عنه أي شائبة عجب!

أما المقام الثاني: وهو مقام الشكر؛ فإن الموفق يشهد نعمة الله سبحانه عليه بمشروعية العبادة ابتداءً، وبهدايته لفعالها، وهو إذ يعلم أن الرب سبحانه هو المنعم عليه بعبادته فلولا هداية ومعونته لما صلى مصل أو صام صائم أو تعبد متعبد، قال سبحانه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّيْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]

قال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر: ١-٣]، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالتسبيح كما أمره بالاستغفار، قال ابن جرير رحمه الله: "وقوله: {فسبح بحمد ربك}. يقول: فسبح ربك وعظمه، بحمده وشكره على ما أنجز لك من وعده". [تفسير الطبري (٢٤ / ٧٠٧)]
وفي ختام الصيام قال سبحانه: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [البقرة: ١٨٥]، قال ابن جرير رحمه الله: "يعنى جل ثناؤه بذلك: ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق، وتيسير ما لو شاء عسره عليكم. و"لعل" في هذا الموضع بمعنى "كي"، ولذلك عطف به على قوله: {ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم}:" [تفسير الطبري (٣ / ٢٢٢)].

وبعد: فيا أيها الصائمون الموفقون استشعروا المقامين السابقين مقام الاستغفار ومقام الشكر وبعثهما، ولتمتلي قلوبنا إخباتاً وفرحاً بالعبادة، وألسنتنا بالاستغفار والشكر.

اللهم أوزعنا شكر نعمك، واملأ قلوبنا بمحبتك ورجاءك ومحافتك وشهود نعمتك سبحانه اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك

طلال بن سليمان الدوسري

السبت ٢٩ رمضان ١٤٤٦